الفصل الثاني

رجال علم ووطنية

الشيخ محمد عبده

قال الأطباء:

- هو مرض في الكبد!

- بل هو سرطان في المعدة..!

- كلا.. بل هو مرض العلماء العاملين، والزعماء المجاهدين، وهو العناء الدائم، والكفاح المتواصل، وليس له من دواء إلا الراحة من الهموم والتفكير.

والتفت الأستاذ الإمام إلى أطبائه، وهم في خلافهم يتجادلون، فقال:

- لا.. بل هو كيد الكائدين، ودس الجهلاء الحاسدين، وقد يعثر الأسد بالشظية فتدمي قدمه، وتثير ألمه، وتخلف عنده من العلل، ما يبدو أثره بعد زوال الأمل..

فقال السيد رشيد رضا أحد الحاضرين:

- لقد أعطيت نفسًا أبيَّة، وعزيمة قوية، وما عهدنا فيك ضعفًا..

فقال الأستاذ الإمام: دعني من نفسي فما أبالي بها، ومن عزيمتي، فما كنت يومًا مرتخصًا لها، وما أنا بآسف على الحياة.

ولست أبالي أن يقال محمد ... أبل أم اكتظت عليه المآتم
ولكنه دين أردت صلاحه ... أحاذر أن تقضي عليه العمائم
وللناس آمال يرجون نيلها ... إذا مت ماتت واضمحلت عزائم[1]
فيارب إن قدرت رجعي قريبة ... إلى عالم الأرواح وانفض خاتم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشدًا ... رشيدًا يضيء النهج والليل قاتم
يماثلني نطقًا وعلمًا وحكمة ... ويشبه مني السيف والسيف صارم

ثم قال: «كأنما الشعر لا يأتيني إلا في السجن وفي المرض» وهو يعني قصيدته التي نظمها في سجنه عقب الثورة العرابية ومطلعها:

مجدي بمجد بلادي كنت أطلبه ... وشيمة الحر تأبي خفض أهليه

وسكن الأستاذ الإمام، وأشار الأطباء بالراحة التامة من العمل، ونصحوه بالسفر إلى أوربا لتغيير البيئة، وتجديد الهواء.

وعاد إلى الحديث، فقال لأحد تلاميذه:

- ينصحونني بالسفر إلى أوربا.. عجبًا.. ألم يكن خيرًا لي أن أسافر إلى الريف لأشتغل - كما يقول الخديو - مع الفلاحين!

فابتأس الحاضرون، وهوَّنوا عن نفسه ألم الحادث الذي وقع بينه وبين الخديو عباس حلمي الثاني قبل المرض بقليل، فأثر في نفسه. وكان النزاع بين الخديو عباس، والأستاذ الإمام ناشبًا في السنوات الأخيرة من حياته، فقد بدأ بوشاية بعض الواشين، وحدث أن خلت كسوة من كساوي التشريف العلمية، بموت أحد كبار العلماء، فبعث الخديو لشيخ الأزهر السيد على الببلاوي يبلغه أمر سموه بمنح هذه الكسوة الشيخ محمد راشد مفتي المعية، فلم ينفذ هذا الأمر.

(1) روى هذه الأبيات السيد رشيد رضا، ويرجع أن البيتين الأولين للإمام والأبيات التالية للسيد رشيد.

فلما اجتمع العلماء عند الخديو عباس في التشريفات، قال الخديو لشيخ الأزهر:

- ألم يصلك أمري بإسناد الكسوة إلى الشيخ محمد راشد؟

فتلعثم شيخ الأزهر، ونهض بالجواب عنه الشيخ محمد عبده فقال:

- ما قرره مجلس إدارة الأزهر إنما هو تنفيذ لأمر أفندينا، لأنه هو ما نص عليه القانون المتوج باسم سموكم.. وأما الأوامر الشفوية، فلا يستطيع المجلس أن يعتمد عليها، فإذا شاء أفندينا أن تكون كساوي التشريف العلمية بمقتضي إرادته الشخصية، فليصدر بذلك قانونًا آخر. ينسخ هذا القانون، أو مادة قانونية، نصها: «كساوي التشريف للعلماء تمنح بأمر منا».

قال الشيخ محمد عبده ذلك بشجاعة يدفعه إليها الحق، ويعتمد فيها على العدل. لكن هذا الجواب أغضب الخديو، فما كاد الشيخ يتمُّه حتى احمر وجهه، ووقف إيذانًا للحاضرين بالانصراف.

مرت هذه الحادثة، لكن لم يمر أثرها.. فقد كان لها وقع شديد في نفس الخديو عباس، وزادت في توتر العلاقة بينه وبين المفتي، وكان الوشاة من حساده، يجاهدون في محاربته، ويتعاونون على القضاء عليه. وكان رحمه الله يكافح جيشين ربضا على صدر الأمم الإسلامية عامة، ومصر خاصة، وهما جيش الضعف وفساد العقائد، وجيش الحساد والطغاة.. فلما وقعت هذه الحادثة وجد هؤلاء الخصوم بعدها مجالًا للكر والفر، وفرصة للدسائس والوشايات.

وكان اللورد كرومر يقدر الأستاذ الإمام، ويعترف بفضله، ويقول لمحدثيه: «إن هذا الرجل لا يمكن تعويضه».. فسعى خصومه في النكاية به عنده، فلفقوا صورة شمسية له مع بعض نساء الإفرنج، وبعثوا بها إلى الخديو وإلى اللورد كرومر، وكتبوا أن هذه الصورة تزري بكرامة الدين، وإنها تدعو إلى إقالته من منصب مفتي الديار المصرية.

فقال اللورد:

- إن الأستاذ يزورنا في قصرنا، وتحضر ليدي كرومر مجلسه، فهل يصح أن نعد هذا إهانة له أو لنا؟!

وتمادى حساد الإمام في باطلهم، وأمعنوا في غيهم، حتى أفسدوا ما بينه وبين أمير البلاد، فذهب في 11 يناير سنة 1904 إلى القصر حاملًا استقالته، ودخل على الخديو، فلما سأله عن سبب استقالته، أجاب قائلًا:

- إذا كان بقائي في منصبي يا أفندينا يحدث لسموكم متاعب، فأنا أفضل التخلي عنه، رغبة في راحتكم.. فانشرح الخديو لهذا الجواب.. ولم يقبل الاستقالة.

***

زال التوتر الشديد الذي كان بين الخديو والأستاذ الإمام في ذلك الحين، وأصيب خصومه بالخذلان، وتحطمت مكائدهم، وارتدت إليهم سهامهم.. ولكن إلى حين. وانهار بناؤهم.. ولكن إلى أجل، فإن الخديو وإن كان قد ارتاح لتقديم المفتي استقالته إليه، وإيثار عطفه ورضاه عليه، إلا أنه كان يخشى شجاعته وقوة شخصيته.. وقد عرفه صارمًا في الحق، فلم يطمئن إليه، وعاد معه إلى خطته الأولى فعاد أعداؤه إلى الكيد له والتشهير به، ورموه بقبول الرشوة.

حدثني شاعر النيل حافظ إبراهيم، قال:

- كنت جالسًا مع الأستاذ الإمام في بيته بعين شمس، فدار الحديث حول الرشوة التي رماه بها بعض الأفاكين، فقال الأستاذ الإمام:

- والله لو كنت ممن يقبلون الرشوة، لسال هذا الفناء ذهبًا!

«وقد صدق رحمه الله، فهو لم يخلف شيئًا لأهله.. وفي يوم مأتمه، رأيت رجلًا يبكي بكاء مؤثرًا، فأردت أن أخفف عنه، فقلت له: إن مصابك يا أخي هو مصاب الجميع، فأجابني الرجل في نشيج محزن: «لست أبكي على مصابنا في «الإمام» فقط، إني أبكي أسى على هؤلاء المساكين الذين كنت أوزع عليهم كل شهر مرتباته من الأوقاف» وإلى هذا أشرت في مرثيتي له فقلت:

بكينا على فرد، وإن بكاءنا على أنفس لله منقطعات

تعهدها فضل الإمام وحاطها بإحسانه، والدهر غير مؤاتي

ثم قال لي حافظ: «ولم أر كالإمام في قوة خلقه، وثقته بنفسه، حدث أن جاءه يومًا كتاب تهديد بالقتل من مجهول، فابتسم رحمه الله ابتسامة ظريفة، ثم دفع الكتاب إلى السلة، وذات يوم كنت راكبًا معه عربته إلى بيته، فقلت له:

- لو أننا فوجئنا بهذا الذي بعث إليك وعيده، فماذا يكون موقف الإمام؟

فأجاب بقوله:

- والله يا حافظ، إني لأهنئ نفسي إذا وجدت في مصر من يقدر أن يقول في وجهي «أخطأت»، فكيف بي إذا وجدت من يريد أن يقتلني؟!

وكان من حساده أحد علماء سوريا، وقد اعتاد أن يطعن في كفايته، ويشهر بعلمه ودينه كخصومه في مصر، فكان الإمام يتغاضى عنه، فلما ألف رسالة التوحيد، بعث إليه هذا العالم بكتاب يقول فيه أنه قرأ هذه الرسالة فأزالت كل سخيمة في نفسه، ودفعته إلى الاعتراف بفضله، فرد عليه الإمام بقوله:

- الحمد لله.. حينما أبغضتني أبغضتني لله، وحينما أحببتني أحببتني في الله.

***

جاهد الأستاذ الإمام في وسط هذا الجيش من الخصوم المتهافتين على نضاله، الموغلين في إيذائه، فلم يعبأ بهم، واندفع في طريق الإصلاح يشقه بهمة قوية وعزيمة حديدية، ونور يمحو ظلام الباطل، ويهتك حجاب الضلال، ويسعى في سبيل الله لا يفرق بين كبير وصغير، أو بين ملك وأمير، بل كان الكل أمامه سواء، ولم تعوزه يومًا الشجاعة في معارضة ما لا يتفق وتعاليم الدين، ولم يخذل يومًا حقًا هاجمه باطل، ولا عدلًا طارده ظلم، بل كان ينبري في الميدان بقلب مملوء بالإيمان، ونفس مزودة باليقين، فينصر ما أحله الله، ويناضل ما حرمه، وكانت هذه الخطة جديرة بأن تجعل له المكانة عند حكام البلاد، لولا السياسة.. وقاتل الله السياسة، فما دخلت شيئًا إلا أفسدته.

وكانت حادثة استبدال قطعة من أطيان وزارة الأوقاف بقطعة من أطيان الخديو عباس.. وكان للإمام فيها رأي يخالف رأي سموه، فحرمه الخديو رضاه.

وفي هذا الحين أقبل أحد الأعياد، فذهب الأستاذ الإمام إلى القصر فيمن ذهب من الكبراء لتهنئة الخديو.. فلما كان في المجلس، قال الخديو:

- بلغنا أن في البلاد لفيفًا ليسوا راضين عن أعمالنا.. فهؤلاء خير لهم أن يعودوا إلى بلادهم، ليشتغلوا فلاحين.

سمع الإمام هذه العبارة، فأيقن أن الخديو عباس يعينه بها.. فخرج من القصر مكلومًا، واعتكف في بيته مغمومًا، ولكنه كان يعمل لوظيفته وللناس، وهو على فراشه.. فأضعف التعب جسمه، وأنهك الحزن نفسه، فاستفحل مرضه.

وكان شهر يونية سنة 1905، فتهيأ للسفر إلى أوربا طوعًا لنصيحة الأطباء، لكن

السفن الدورية كانت قد امتلأت بالمصطافين، فاضطر إلى الانتظار إلى ما بعد اليوم الرابع عشر من هذا الشهر.

ودنا موعد الدور الثاني، ودنت حالته من النهاية، وأشرف على الرحيل من هذه الحياة، فنصح الأطباء لأهله ومريديه أن يحببوا إليه الإقامة بالإسكندرية وأن يثنوه عن السفر إلى أوربا، فأفلحوا.. ونزل بطل الإسلام بمدينة بطل اليونان.

طابت الإقامة لمفتي البلاد، وزعيم الإصلاح الديني والاجتماعي بهذه المدينة، وانتعش الأمل في شفائه، وابتهج الناس بتحسن صحته، وتفاءلت مصر كلها بما ذاع بين أرجائها من أنباء سارة، وابتهلت إلى بارئها أن يتم لإمامها أحسن العافية.

لكن هذا الأمل الذي انتعش في بسمة من الأيام، وهذا الابتهاج الذي بدا في ساعات معدودات، وهذا التفاؤل الذي لمع في النفوس، لم يلبث ذلك كله طويلًا.. فقد تبدد في الخامس من يولية حين انتشر نبأ الخطر على صحته.

وكان المكلفون بتمريضه يحيطون به في مساء ذلك اليوم، وقد اطمأنوا إلى أنه يقضي الليل منذ أيام في راحة وهدوء.. ولكنه في هذه الليلة، استيقظ متضورًا، فأسرعوا إليه، فوجدوه حائرًا، يتلوى يمينًا ويسارًا من تبريح الآلام، وكان السرطان قد امتد إلى فمه، فضاعف عظيم ألمه، واستمر في هذه الحال يعاني الداء العقام، ويكافح الأوصاب الجسام، ويستعين عليها بذكر الله، وكان منذ ابتداء مرضه يردد في عنائه: «الله أكبر..».

الله أكبر.. كانت هذه التكبيرة سلوته، ومفتاح صبره، وبلسم ألمه..

الله أكبر.. كانت هي عماد عزمه في شجاعته وإقدامه، وآية كلمه في يقظته ومنامه، وفي قعوده وقيامه.. لم ينفك عن ذكرها، ولم يبرح يعيدها، كلما برح به الداء، واشتد عليه البلاء.

وفي صباح الحادي عشر من يولية سنة 1905 دخلت عليه السيدة زوجته، فوجدته هادئًا.. فنادته، ففتح عينيه قليلًا ثم أغمضها، وأخذ يحرك شفتيه بالتكبير، فعادت السيدة فأسمعته جميل أمانيها له ودعاءها بشفائه، فابتسم لها، ثم حرك شفتيه بالتكبير.. فكان آخر ما حرك به لسانه قبل إصابته، وآخر ما حرك به شفتيه في سكرات موته.. حتى استوفى من الحياة آخر اللحظات، وصعد ليستوفي جزاءه من نعيم الجنات.

مصطفى كامل

كانت الساعة الخامسة من مساء يوم الاثنين 10 فبراير سنة 1908، وقد أخذ قلب مصر يخفق خفقانًا شديدًا للخطر الذي أجدق بزعيمها الشاب مصطفى كامل منذ الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم، وما مضت نصف ساعة حتى كانت المأساة الوطنية الكبرى بأفول هذه الحياة الساطعة التي اتقدت حماسة ونشرت نورها بين الجوانح والقلوب، فأيقظت نفوس المصريين، ودفعتها إلى الأمام عشرات الأعوام.

شعر الفقيد العظيم بالمرض لأول مرة قبل وفاته بنحو أحد عشر عامًا من فرط الإجهاد في العمل لخدمة وطنه، وسعيه لتحرير أمته من ربقة الاستعباد، ونير الاحتلال البريطاني، فقد عاد من أوربا في 10 أكتوبر سنة 1897، فاستقبله أصدقاؤه وأنصاره بالحفاوة والتكريم، ولم يمض يومان على عودته حتى اعتراه مرض أنهك قواه عدة أسابيع، فأشار عليه الأطباء أن يقضي الشتاء في حلوان فعمل بمشورتهم، وسافر إلى هذا المشتى، ومكث فيه حتى أَبَلَّ[1] من مرضه، ثم كتب إلى شقيقه على فهمي رسالة في 3 ديسمبر سنة 1897، يقول فيها: «أخي.. لا شك أنك قلقت كثيرًا حتى بعثت بثلاثة تلغرافات بعد عدة خطابات لتقف على صحتي، لأني منذ ثلاثة أشهر لم أكتب

(1) أَبَلَّ: شفي من مرضه.

إليك كلمة. إني كنت في مرض شديد يئست معه من حياتي، وقد أصابني بعد وصولي إلى العاصمة بيومين. وهو مسبب عن كثرة المتاعب التي صادفتها في هذا العام، والتي أؤمل أن تكون ناجحة، لأنها كما تعلم صادرة بإخلاص، ولا أمل لي في شيء من ورائها سوى عودة مصر إلى زهوها، ورجوع السيادة لأبنائها المخلصين».

عاد مصطفى كامل إلى جهاده وإلى متاعبه، ولم يشفق على نفسه المحبة لمصر، المغرمة بحريتها وكرامتها، فكان المرض يعاوده حينًا بعد حين، ففي سنة 1903 اعتلت صحته، وكتب إلى مدام جولييت آدم من فيشي بفرنسا كتابًا يقول فيه:

«يجب أن أقضي معظم هذا الشهر في (التيرول)[1] مع صديقي فريد بك الذي تشرفت بتعريفه إليك منذ سنتين، لأن الأطباء قد رأوا أنه من الواجب أن أمضي في الجبل بعض الزمن إذ أخذ التعب يستولي على أعصابي.. ولهم الحق في ذلك، فإني لم أشفق على نفسي!..».

وكتب إليها يقول في رسالة أخرى، وقد عاوده المرض والإرهاق بعد عامين من تلك الرسالة: «إن العمل قد أضناني إلى حد أشعر معه بسرعة الحاجة إلى ترك الوسط الذي أعيش فيه، وكأن الطبيعة خالفت سنتها، إذ جعلت قوة روحي أكبر من قوة جسمي».

وفي صيف سنة 1906، سافر إلى أوربا للاستشفاء والعلاج، وكان في حاجة قصوى إلى الراحة، ولكن حادثة دنشواي جعلته يقطع على نفسه سبيل الراحة والعلاج، فهب من فراش المرض يدافع عن المظلومين، ويحارب بقلمه ولسانه وجسمه الظالمين وكان وقتئذ في باريس، فثارت نفسه، ووثب قلبه ليسمع العالم صوت مصر، وكتب في جريدة (الفيجارو) الفرنسية مقالًا بليغًا بعنوان: «إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدين» عرض فيه حادثة دنشواي على الضمير الإنساني، فكان لها أثرها البالغ في النفوس، وكانت من أبلغ ما كتب الفقيد العظيم وأكبر معول في هدم صرح الظلم والهمجية الذي أقامه اللورد كرومر في مصر.

وأخذ مصطفى كامل يواصل الجهاد بلا مبالاة بصحته ولا خوف على حياته، لأن حب مصر كان يملأ قلبه، وغرامه بحريتها وعزتها واستقلالها يشغل نفسه، وفي صيف

(1) التيرول: ولاية نمساوية تتمتع بشهرة عالمية نظرًا لغناها بمنتجعات التزلج كما أنها وجهة مثالية في فصل الصيف للاستمتاع بالطبيعة والمناظر الخلابة لجبال الألب. (الناشر).

سنة 1907، رحل إلى أوربا للاستشفاء والجهاد. وكانت هذه الرحلة هي آخر رحلاته، فشعر بالمرض يشتد به، فقال للمسيو أدولف أدرير مراسل «الأتيندار» في باريس حين قابله: «إني أشعر أن المرض قد عاد إلي.. ترى هل أعيش حتى أرى أول نجاح لمجهودي ليحصد الآخرون نتائج جهادي، ولكني أتمنى أن يكون لي وقت كاف للغرس والزرع!».

وكانت هذه هي الأمنية الكبرى بعدما شعر بأن مرضه الخطر يهدده بالفراق. ولما عاد مصطفى كامل إلى مصر في أكتوبر سنة 1907، قابله الشعب بأعظم مظاهر التقدير والإعجاب، ورأى هو أن يدعم حركته قبل وفاته بتأليف الحزب الوطني، وفي أول اجتماع مع أصدقائه وإخوانه للبحث في تأليف الحزب شعر بشيء من التعب، ورأى الحاضرون علامات الضعف بادية عليه، فقال لهم:

- يخيل إليَّ إني عما قريب، سوف أفارقكم!

فقال إخوانه:

- إلى أين؟.. لقد أجهدت نفسك، وسموت فوق الطاقة في الجهاد، وأنهكت جسمك في السفر في سبيل مصر مرارًا، فاسترح في بلدك.

- سوف يستريح جسمي الراحة الكبرى.. وكنت أود لو استراحت روحي ونفسي قبل الفراق.

- ماذا تعني يا باشا؟

- إني لن أعيش طويلًا، وسأموت قريبًا.. فلا تضيعوا الوقت، وأسرعوا في العمل!

- سلمت يا مصطفى.. لا تتشاءم، ودع عنك هذا الوهم، وسيمن الله عليك بالشفاء التام.

- ليس تشاؤمًا، وليس وهمًا، إني لأشعر في أعماق نفسي بقرب نهايتي!

فارتاع إخوانه من هذا الحديث الذي دار بينه وبينهم في اجتماعهم في أكتوبر سنة 1907، وجمدت أبصارهم وجلسوا في ذهول.

وفي أثناء هذه اللحظات التفت إلى شقيقه علي فهمي كامل، وقال: «تشجع يا علي، وإذا مت، ليحمل اللواء هذا الرجل النبيل» وأشار إلى محمد فريد بك.

ولقد كان مصطفى كامل يغالب العلة، ويكافح المرض ليواصل رسالته في الجهاد

لحرية مصر وخلاصها من الاحتلال، ثم كان خطابه الحماسي البليغ الذي ألقاه في 22 أكتوبر بمسرح زيزينيا بالإسكندرية قبل وفاته بنحو أربعة أشهر، واستمر أربع ساعات في إلقائه، فبذل من صحته ومجهوده ما دفع أصدقاءه إلى الإشفاق عليه، والخوف من أن يكون خطابه هو خطاب الوداع، وقد ضمنه آماله، ومبادئه، وتفنيده القوي لحجج خصومه، ونداءه الخالد للمصريين، وحضهم على العمل الدائم، حتى تستعيد مصر مجدها القديم، وتصبح كما كانت سيدة الأمم.

قال الزعيم مصطفى كامل:

- دهش الذين كانوا لا يرون فينا إلا أمواتًا تتحرك، كما بهت أعداء الوطنية المصرية من هذه الروح الجديدة التي دبت في الأمة، وقالوا عجبًا: «أيحيا هذا الشعب؟.. أتنهض مصر بنفسها؟.. أتعمل للاستقلال وحدها؟.. أتقدر على تحقيق مطالبها بمحض إرادتها؟.. أتقاتل اليأس والقنوط، وتتغلب على الحوادث والكوارث؟».

أجل يا أعداء مصر، وألف مرة أجل.. إن مصر بالغة آمالها، ومحققة أمانيها بإرادتها وهمتها. إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم في ماضي الأيام وحاضرها، وأعلى مطلب ترمي إليه في مستقبلها، فلا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا في طريقنا، ولا الشتائم تؤثر فينا، ولا الخيانات تزعجنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية.

نعم.. لو تخطفنا الموت من هذه الدار واحدًا واحدًا، لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا: كونوا أسعد حظًا منا، وليبارك الله فيكم، ويجعل الفوز على أيديكم، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بحقوق الوطن، والحرية، والاستقلال المقدس.

«بلادي بلادي.. لك حبي وفؤادي.. لك حياتي ووجودي.. لك دمي ونفسي. لك عقلي ولساني.. لك لبي وجناني.. فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر».

***

ألقى مصطفى كامل هذا الخطاب في أكتوبر سنة 1907، وتنبأ بقرب وفاته، وكان قبل ذلك قد بعث في سبتمبر من ذاك العام إلى شقيقه علي فهمي كامل خطابًا من باريس يشكو فيه ضعف جسمه، واشتداد آلام الأمعاء عليه، ويتنبأ بأن حياته قصيرة وأجله قريب.

وعلى الرغم من اشتداد آلامه، ونحول جسمه، كان لا ينفك عن العمل ليل نهار بنفس فتية، وروح قوية، لا يقعد به الضعف عن الإقدام، ولا يثنيه المرض عن الاستبسال، وقد دفعه كفاحه ضد خصوم وطنه، إلى كفاحه ضد راحة نفسه، وتغلبه على ضعف جسمه.

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام

لم يرفق «مصطفى» بجسمه النحيل الضئيل، حتى أصبح روحًا في هيكل عظمي، أو أصبح كله روحًا عجيبة تتكلم وتعمل وتسير بلا جسم! وإذا كان نهوضه الوطني في ذلك الزمان نادرًا، ونبوغه السياسي بين الشباب نادرًا، ونشاطه الفتي بين المجاهدين نادرًا، وتفانيه الكلي في حب وطنه نادرًا، فلا عجب إذا أعطى روحًا فريدة نادرة، تفرض إرادتها على الزمن، وتتغلب على المصاعب، وتعيش سليمة قوية سواء أبقي الجسم أم تداعى وانمحى.

نازل «مصطفى» المرض عدة مرات، فكانت له الغلبة، وفاز بالنصر، وتماثل للشفاء، فانتعشت آمال أصدقائه ومريديه. لكنه عاد في أوائل يناير سنة 1908، فشعر بتعب في المعدة إلى جانب مرض «الأمعاء والكلى»، فنصح له الأطباء بالاعتكاف في فراشه.

رأى الزعيم الشاب أن مرضه الشديد يخفي وراءه شبح الموت، وأنه على الرغم من قوة روحه، لا يستطيع أن يكافح هذا المرض الفتاك، ولكنه استسلم للراحة، واعتكف في فراشه عملًا بنصح الأطباء، لعله يطيل في مدة حياته القصيرة أيامًا يخدم بها أمته وبلاده.

وقبل وفاته بأيام دعا والدته، فجلست بجواره، وأخذ يحدثها عن آماله، ويشكو إليها ما ألم به من أسقام، فصارت والدته تطمئنه، وتهون عليه مصابه، فدمعت عيناه، ثم أجهش بالبكاء، والتفت إلى أمه، وقال:

- لست أبكي يا أماه على الحياة، وإنما أبكي على مصر المسكينة، آه لو عشت عشرين سنة أخرى، لمت هانئ البال، مطمئنًا على بلادي أنها ستصبح مستقلة، نعم، وأنا واثق أنها ستكون سيدة العالم في يوم من الأيام.

وهنا دخلت شقيقته الصغرى «نفيسة هانم» وشقيقه علي فهمي، فدعاهما للجلوس، ثم أمسك بيد شقيقته، وقال:

- كنت أتمنى أن أعيش طويلًا، وأراك عروسًا في منزل زوجك.

والتفت إلى شقيقه علي فهمي، وقال:

- ستتعب يا أخي من أجل مصر، ولكن لا تحزن.

***

كانت مصر في ذلك الحين قد علمت باشتداد المرض على زعيمها الأكبر، فهلعت قلوبها، وارتاعت نفوسها، واتجهت بآمالها إلى الله داعية متضرعة أن يبقى لها ابنها البار، الوفي لخدمتها، المدافع عن حريتها، وهرعت الوفود إلى داره تسأل عن صحته.

وفي يوم السبت 8 فبراير، أي قبل وفاته بيومين، زاره الخديو عباس حلمي الثاني، فنهض له الفقيد من فراشه واستقبله في ابتهاج ونشاط كأن لم يكن به داء، وعند توديعه، قال له:

- لي رجاء يا أفندينا، وأنا أشعر الآن بقرب الأجل، أن تعطف على الحزب الوطني، فإنه أمل مصر، وقد وصلنا إلى نجاح كبير في مسألة دنشواي، وإحراج اللورد كرومر، وتغيير وزارة مصطفى فهمي، وإنشاء مجالس المديريات، وانتصارنا لتركيا في مسألة طابة. فطمأنه الخديو، وتمنى له حياة طويلة.

وفي مساء ذلك اليوم نام مصطفى كامل نومًا مريحًا، وابتسم صباح الأحد عن هدوء واطمئنان وتفاؤل بشفاء الزعيم، وزاره بعض أصدقائه، وفيهم أمير الشعراء أحمد شوقي بك، فجلس يحادثهم، وإنه لكذلك إذ شعر بآلام شديدة، فاستأذنهم في الاستلقاء على فراشه، وأسرع الدكتور صادق رمضان، فقام بإسعافه لتخفيف ما يشعر به، فقال مصطفى لطبيبه: «هل هناك أمل؟..».

فقال الطبيب: «نعم... لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة».

فهز مصطفى رأسه، وقال: «بل إني أذوب الآن وعما قريب أموت».

ثم التفت إلى صديقه أمير الشعراء، وقال له في ابتسامة حزينة:

- سوف ترثيني يا شوقي.. نعم.. أليس كذلك؟

فسكت شوقي ودمعت عيناه. وفي ذلك يقول بعد وفاة صديقه الزعيم:

ولقد نظرتك والردى بك محدق … والداء ملء معالم الجثمان

يبغي ويطغى والطبيب مضلل … قنط، وساعات الرحيل دوان

ونـواظـر الـعـواد عـنـك أمالها		دمـع تـعـالـج كـتـمـه وتـعـانـي
تملي وتكتب والمشاغل جمة		ويـداك في القرطاس ترتجفان
فهششت لي حتى كأنك عائدي		وأنـا الـذي هـد السقام كياني
ورأيت كيف تموت آساد الشرى		وعرفت كيف مصارع الشجعان
ووجدت في ذاك الخيال عزائمًا		مـا لـلـمـنـون بـدكـهـن يـدان
وجعلت تسألني الرثاء فهاكه		مـن أدمـعـي وسـرائـري وجناني

وقام شوقي، وقام سائر الصحب من الأصدقاء والمريدين، وهدأ الزعيم قليلًا، وأقبل المساء، فانتعشت صحته، ونشطت بنيته وأخذ يسامر أهله ويمازحهم، ويلعب معهم «الكتشينه»، واستمر في تلك الليلة يقظًا إلى الساعة الحادية عشرة، ثم نام. وفي الساعة الرابعة صباحًا استيقظ، فوجد نفسه غارقًا في بحر من العرق، فدعا بملابس أخرى فأبدلها بملابسه، ثم نام نومًا هادئًا، لم يزعجه فيه ألم.

وفي العاشرة من صباح الإثنين 10 فبراير سنة 1908، دخل عليه شقيقه علي فهمي، وزميله محمد فريد، وبعض صحبه، فسألوه عن صحته، فطمأنهم، وجلس يحادثهم ثم لم يقو مصطفى على الحديث طويلًا. ولاحظوا تغيرًا في لونه، وجمودًا في عينيه، وشرودًا في فكره، فاستولى عليهم الجزع، وسألوه عن ألمه، فقال: «لا شيء، لا تخافوا» ثم اتجه إلى فريد، وقال:

- تشجع يا فريد، واستمر في عملك بحكمة، ليسهل علينا بلوغ الأمل.

وصمت بعد هذه العبارة، وكاد يغيب عن الوجود، ثم تنبه قليلًا، وقال: «مسكينة يا مصر!!».. وأخذ يردد هذه الكلمة، وكانت آخر كلماته.. واستولى عليه تشنج لم يفق منه، وصعدت روحه إلى عالم الخلد في منتصف الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم المشئوم.

فكانت مأساة.. أية مأساة.. ومصابًا أي مصاب - مصاب الوطن الحزين، مصاب الشباب الناهض، مصاب النبوغ النادر، مصاب البسالة الفائقة، مصاب الحجة الدامغة، مصاب الإخلاص في العمل، والجهاد في سبيل الحق، وفي سبيل الحرية والاستقلال!

الشيخ علي يوسف

- نعم يا صديقي.. لقد خدمت بلادي نحو ربع قرن ذائدًا عنها، مدافعًا عن حقوقها، مجاهدًا في سبيل الإسلام والمسلمين، حتى فقدت المال، وهو عماد الحياة، وأضعت الصحة، وهي تاج السعادة، وانتابني مرض القلب فحرمني كل راحة، وأضعف مني كل أمل. وكنت أشعر بأن لي قلبًا يحملني إلى المجد، فصرت أشعر بأنني أحمل قلبًا يسوقني إلى الموت، وما أظن إلا أنني خافق بين خفقاته، وراحل في نوبة من نوباته.

- لا تخف يا شيخ علي.. فلقد كدت تخيف بقلمك الموت، وقد حطمت في طريقك مخاوف الحياة.

- إن هذا الداء يا صديقي قد نال مني، وثقل على نفسي وجسمي، وكان أثقل مما أحمله من أعباء الديون، وما أرى الصحة إلا دينًا يقتضيه القدر منا بالأمراض، ولا أرى الهناءة إلا قرضًا يجود به الدهر، وعارية تسمح بها سانحة من الزمان.

- لكنك قضيت أيام صحتك فيما يوجب لك الحمد من وطنك، ويستأهل الجزاء الأوفى من ربك.. فإذا شكوت اليوم الداء، فما أحسبك تشكو من نفسك التقصير، وتندم على فوات وقتك في الإهمال.

- احمده يا أخي على كل حال.. وإذا مت فستطمئن روحي إلى أني بذلت ما في

وسعي، ونهضت بما استطعت في سبيل مصر، وفي سبيل الإسلام، وفي سبيل الجامعة الإسلامية..

- وفي سبيل الدستور..

- حقًا، وفي سبيل الدستور أيضًا، لقد فرحت مع الفرحين من صميم قلبي للانقلاب الدستوري في الآستانة، وقدرت الأبطال المجاهدين من أجله حق قدرهم، ولم أقف موقف الاعتراض عليه إلا من حيث الشكل، أما الموضوع فإني أرى الدستور لازمًا لحياة الدولة العلية، وبقاء الجماعة العثمانية، وقد كان هذا الانقلاب ضروريًا، لأن هذا العصر الذي يتقلص فيه ظل الحكم المطلق من كل مكان لم يكن ليسمح ببقائه في الممالك العثمانية إلا والحوادث تمزقها كل ممزق، ولئن خشيت شيئًا على الدستور، فإنما أخشى الجيش.

- ولماذا؟

- لأن السيف، والحرية، والدستور، لا تبيت في جراب واحد.

- صدقت!

- ولأن تدخل الجيش في الأعمال السياسية والإدارية، خطر على الدستور، وخطر على كيان الأمة، والواجب أن يقف الجيش موقف الحارس.

«وقد بعث لي الأستاذ سليمان البستاني من الآستانة يعاتبني على ما كتبته في (المؤيد) انتقادًا لتدخل رجال الجيش العثماني في الشئون السياسية والإدارية، فأجبته بأن هذا التدخل أفقد الدولة التوازن بين الحزبين السياسيين اللذين في مجلس "المبعوثان"، وفقدان التوازن قد حصر السلطة في يد فريق من الفريقين المتنافسين عليها في وقت لم تتشبع فيه النفوس من المبادئ الدستورية الحقيقية، فكان التذابح الذي وجد بين الحزبين، فإذا كان الانقلاب الذي جرى بعد ذلك قد خلع سلطانًا مستبدًا، فإنه أيّد استبداد جماعة لا يمكن أن تبقى للأمة وحدتها معهم إذا استمر استبدادهم بشئون الحكومة والأمة، ولهذا نخشى أن يفضي العمل الذي أريد به الدستور إلى تمزيق شمل الأمة.

قال محدثه وصديقه أحمد شفيق باشا:

- أصبت.. ولقد قرأت مقالاتك في هذا الانقلاب، فقدرت آراءها، وأكبرت فوائدها للدولة وللإسلام.. وما أكثر ما أفدت أيها «السيد» بآرائك ومقالاتك.

- لكني جنيت بهذه الفوائد مرضًا أليمًا، ودينًا جسيمًا، وأحسنت إلى الدولة وأسأت إلى نفسي.. وما أظن إلا أني ملاق حتفي عما قريب.. ولي يا أخي ملتمس أريد رفعه إلى الخديو.

- ما هو؟

- بمدينة الإسكندرية وقف، باسم السيد عبد الرازق الوفائي، يتولى النظارة عليه ديوان الأوقاف.. وهو تابع لوقف السادة الوفائية الذي أتولى النظارة عليه.. فهل تسعى لدى الخديو كي يصدر أمره بتحويل نظارة هذا الوقف وجعله تحت رياستي؟

- سأبحث الموضوع، وسأعرض الالتماس على سموه عساه يصدر أمره الخديو بذلك، وأرجو أن نتقابل في صلاة الجمعة القادمة بحضور سموه..

***

كان ذلك في مايو سنة 1912، والخديو عباس حلمي يصطاف وقتئذ بالإسكندرية، وكان حديث الشيخ علي يوسف مع أحمد شفيق باشا، بقصر رأس التين.

وفي يوم الخميس التالي، ذهب الشيخ علي يوسف إلى أحمد شفيق باشا مدير ديوان الأوقاف وقتئذ، وحادثه في موضوع الوقف، فأخبره أن البحث دل على أن عبد الرازق الوفائي لا ينتمي لعبد الرازق الوفائي التابع لأبي الأنوار السادات الذي يتولى نظارته الشيخ علي، وأن الاسم لمسميين، وإن بين الواحد والآخر جيلًا كاملًا، فاعترض الشيخ علي يوسف، وناقش صديقه مدير الأوقاف طويلًا، ثم قام غاضبًا.

وفي يوم الجمعة ذهب إلى قصر رأس التين، ليقابل سمو الخديو، وليعرض عليه ما دار بينه وبين أحمد شفيق باشا.. فاستأذن سموه، ولما مثل أمامه أخذ يشرح أمره في تأثر عظيم، وطال الشرح فاشتد خفقان قلبه، وشعر بوخز شديد، ثم أغمى عليه بين يدي الخديو، فاستدعى له طبيب القصر، فقام بإسعافه حتى أفاق من هذه النوبة القلبية التي كانت تصيبه في بعض الأحيان.

وكان في قصر رأس التين وقتئذ سعد زغلول باشا، وإسماعيل أباظة باشا، وحافظ بك عوض، وشهدوا ما أصاب الشيخ علي، فاهتزت عواطفهم، وكلهم صديق له، مقدِّر لمكانته، معترف بفضله.

وأقبل عليهم أحمد شفيق باشا في القصر، حينما علم بالحادث، فقالوا له:

- ماذا بينك وبين «الشيخ» وحجته قوية وبرهانه واضح؟!

فأبدى لهم شفيق باشا رأيه.. ثم دعى لمقابلة الخديو، فلما دخل وجد محمد سعيد باشا جالسًا عنده، فعرض البحث على سموه، فقال سعيد باشا:

- لكن الشيخ علي جدير بالتساهل، ولست أرى رأيك في الموضوع فقال شفيق باشا:

- إن المسألة مسألة شرعية، فلماذا يطلب الشيخ علي من الخديو أن يقضي فيها؟

وأحيلت هذه المسألة إلى لجنة تبحثها وتقضي في الموضوع، وصرف المرض الشيخ علي يوسف عن متابعة هذه اللجنة، وكان داؤه يتفاقم بتوالي الأيام.

***

وكان رحمه الله قد اعتزل الصحافة قبل هذا الحادث بنحو شهرين - أي في 6 مارس سنة 1912 - لإسناد مشيخة السادة الوفائية إليه. فكتب في جريدة «المؤيد» كلمة الوداع، قال:

«إلى سادتي.. وإخواني.. ورصفائي قراء المؤيد..

«بعد ثلاث وعشرين سنة أنشأت فيها «المؤيد» وقمت بتحريره مسئولًا عنه، قد اضطررت منذ الأمس بمقتضى أسباب عائلية قوية إلى أن أودع مهنة الصحافة التي أحترمها، وأعتبرها من أشرف الأعمال المفيدة كثيرًا للهيئة الاجتماعية، بل اضطررت إلى أن أودعكم راجيًا أن تكونوا حفظة كرامًا خيرين تذكرون الحسنة وتنسون السيئة ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:114].

«على أنني مع هذا الوداع إنما أترك وظيفة التحرير في «المؤيد»، وقد صار قوة كبرى في خدمة الأمة، بل إنه بحيث لم أصبح فيه إلا عاملًا من جملة عمال كثيرين، وكاتبًا من كاتبين، فهو لا يخلو يومًا واحدًا من آثار عشرات من كبار الكتاب المفكرين، ولا يضيره ألا يكون فيه واحد من هؤلاء. ولن تتخلى عنه الأمة التي أصبح وديعة في ذمتها، إن تخلى عنه قلم من بين أقلام المحررين.

«وفضلًا عن هذا، فإني إذا تركت قلمي بجانبي، فلم أكسره، وإن عطلت وظيفة لي في «المؤيد»، فلم أعطل فكري وضميري. وسأقوم بما يجب علي لوطني كلما دعاني هذا الواجب بقدر ما أستطيع.

«كما أنني سأبذل جهدي في القيام بأعباء جمعية الهلال الأحمر -وكان قد أنشأها - لجعلها جمعية ثابتة قادرة على الدوام أن تؤدي وظيفتها المقدسة التي تتطلب منها عواطف الإنسانية الرحيمة.

«وأسأل الله أن يوفقني وإياكم في خدمة الأمة والملة لما يحبه ويرضاه».

***

ودع الشيخ علي يوسف الصحافة هذا الوداع، فكانت مفاجأة اهتزت لها نفوس القراء في جميع أنحاء الشرق العربي، بل في جميع أنحاء العالم الإسلامي. وتوالت الرسائل على المؤيد، تلح في عودة «الأستاذ» إلى الكتابة، وأسف الناس كلهم لحرمانهم من قلمه الذي وصفه حافظ إبراهيم بقوله:

في شقه ومراميه وريقته ... مافي الأساطيل من بطش ومن عطب

كم رد عنا وعين الغرب طامحة ... من الرزايا، وكم جلى من الكرب

له صرير إذا جد النزال به ... ينسى الكماة صليل البيض والقضب

وبلغ التأثر بمحرري جريدة «المؤيد» من وقع هذه الاستقالة، أن قدموا استقالتهم إليه قائلين:

- إن المؤيد جسم وأنت روحه، وسعادتنا بالعمل فيه هي بالنسبة لكوننا مرءوسين بك، وحيث أنك استقلت من إدارته ورياسة تحريره، فنرجو أن تقبل استقالتنا.

فلما قرأ هذه الاستقالة، جمعهم، وجعل يطمئنهم، ويشرح الأسباب التي أدت إلى الاستقالة للانصراف لخدمة منصبه الجديد.

اعتزل الشيخ علي يوسف الصحافة، وودع الكتابة، وانصرف لخدمة السادة الوفائية، وفي أثناء ذلك رفع ملتمسه السابق لضم وقف السيد عبد الرازق الوفائي إلى وقف أبي الأنوار السادات، فوقع بينه وبين صديقه أحمد شفيق باشا مدير ديوان الأوقاف خلاف لم يؤثر في العلاقة التي بينهما، ولم يلبث أن عاد إلى صفوه، واستأنف معه سابق وده، وكان نقاء قلب الشيخ علي يوسف وكرم نفسه من أبرز صفاته.

ولقد كانت بينه وبين مصطفى كامل باشا، منافسة حامية تقطع بين الأخوين، وخصومة سياسية عاصفة تقتلع ما بين الأقربين، ومات «مصطفى» فكان بكاؤه عليه بكاء الشقيق المنكوب، ورثاؤه له رثاء الصديق المسلوب، فقد رثاه يوم وفاته بدموع

دامية، وعواطف ثاكلة، وقلب مروع مفجوع، وأشاد بمواهبه، وأطرى جهاده، وأكبر خدماته للوطن، فقال فيما قال:

«إليك أيها الصديق القديم، أرسل تحية الحزين من سويداء قلبه إلى أعماق قبرك، ذاكرًا لك تلك السنين الثماني عشرة التي قضيناها معًا في خدمة الوطن.. لا فضل لما كان بيننا فيها من صفاء على ما تخلل صلاتنا بعد ذلك من جفاء، فقد كنا متناظرين، أقرب منا إلى أنفسنا متناصرين، لا تحفل إلا بما أكتب، ولا أهتم إلا بما تقول، ولكن الصلات الشخصية كثيرًا ما يعتريها بين الأخوين من الأبوين - فضلًا عن الصديقين - فلول، ثم تزول.

«وإليك أيها الصديق القديم، والزعيم العظيم تحية محزون، يعرف لك أكثر من كل إنسان خدمتك العظيمة التي خدمت بها وطنك، فأيقظت من شعور الوطنيين ما قامت مظاهرات الأمس أكبر برهان على مقدار ما كان لك فيه من حسن أثر ويد بيضاء».

***

وكذلك كان الشيخ علي يوسف مع سائر أصدقائه، فلما حدث ما حدث بينه وبين شفيق باشا مما أصابه بالإغماء بين يدي الخديو، لم يحقد عليه، ولم تعاوده موجدة كلما عادت إليه هذه النوبة القلبية، وقد استمر طول العام الأخير من حياته يصارع نوباته صراعًا عنيفًا حتى كانت ليلة الخامس والعشرين من شهر أكتوبر سنة 1913 فاشتد به الداء، وثقل عليه البلاء، واضطرب النبض، واستحرت في قلبه الآلام، واستبدت دقاته كأنما هي وقع السهام:

فإن أفشى النسيم لكم حديثًا ... بأني قد قبرت فلا تشكوا

فمهما جئتمو بعدي فصلوا ... على قبري الجنازة ثم فابكوا[1]

وفي منتصف الليل، طلب من أهله أن يدعوا صديقه عبد الخالق مدكور باشا فحضر إليه، حانيًا عليه، ووجده في حال تستدر الشئون.. ينوء بأوصابه، ويهم من فراشه جالسًا في شهيق يفتت الأكباد، وتلتاع له الأفئدة، ثم ينتفض ماشيًا في هجوم كأنما يدفع عنه عدوًا، أو يرد مفترسًا يريد أن ينقض عليه، فيسلبه أعز شيء لديه،

(1) البيتان من ديوان «السحر» نظم الشيخ علي يوسف.

حتى إذا وهنت قواه سقط على مقعده، أو تخاذل في مضجعه، أو عانق صديقه عناق المستجير من الآلام، المستغيث من وخزات السهام.

فواها لك أيها القلب.. طالما عشت دهرًا كنت فيه لهذا الرجل العظيم أداة القوة ومبعث الحياة، تنبض بالسعادة والهناء، ثم أصبحت مصدر الضعف ومثوى الشقاء، تنبض بالآلام وتنذر بالحمام.

وهمد الرجل العظيم في مكانه، فظن الواقفون حوله أنه فاض، فأقبلوا عليه يستيقنون، ففتح عينيه وعاد لشكاته.. وضاق بفراشه، فهم بالخروج من بيته فمنعوه، فطلب أن ينقل إلى قصر السادات بالجماميز - وكان وقتئذ مقيمًا بحدائق القبة - فأجابوا طلبه، وحمل في عربته في وجه الفجر إلى هذا القصر، فكان يعاني سكرات الموت في الطريق.

وما كادوا يطمئنون به في سريره حتى سكت القلب، فسكت عنه الألم.. وصعدت الروح إلى الملأ الأعلى في سلام، بعد جهاد طويل في سبيل وطنه، وفي سبيل الإسلام.

السيد توفيق البكري

- ياما أحيلي الوحدة والريف، وذلك المشتى والمصيف، والجو السجسج والظل الوريف[1].

- لكنك يا سيد توفيق قد أطلت الوحدة، وملت بك العزلة، وحبست نفسك فيما لا يحبس الناس فيه أنفسهم، وقيدتها في غرفة ضيقة المذاهب، قاتمة الجوانب، لا تعرف فيها اليوم من الأمس، ولا تزورها أشعة الشمس، وهي أشبه من البيت بالرمس. وما أنت في الريف، حتى تهنأ بالمشتى والمصيف، والجو السجسج والظل الوريف، وما لأحد غنى عن الإيناس، والجلوس حيث يجلس الناس.

- وما لي وللناس، وأميرهم العباس، وقد مارستهم أشق مراس، فلقيت منهم الغدر والباس، وفقدت فيهم المودة والإيناس.

ذريتي وكتبي والرياض ووحدتي ... أظل كوحشي بإحدى الأمالس

يسوف[2] أزهار الربيع تعلة ... ويأمن في البيداء شر المجالس

(1) الجو السجسج المعتدل، وقد راعينا في هذه المأساة طريقة السيد البكري في السجع.

(2) يسوف أزهار الربيع أي يتصبر بها، والأمالس جمع أمليس، وهي الفلاة.

رحماك إن عزلة بين كرم وأعناب، ودواة وكتاب، لهي الجماعة والأنس للنفس، وإن اجتماعًا بكبير يزار، أو رئيس لا يجد نفسه بالليل، ولا تجده في النهار، أو عدو ليس من صداقته بد، أو حقود ذله أظهر منه الود، أو حسود ملق، كالذبالة يضحك وهو يحترق، أو جاهل متعاقل، أو متصفح وهو باقل، أو صغير به كبر، أو خدين فيه غدر، لهو وأيم الله الوحشة والوحدة.

جزى الله عني مؤنسي بصدوده جميلًا ففي الإيحاش ما هو إيناس

فقال محدثه وصديقه الشيخ علي يوسف:

- وهل يسرك أن تقاطع الأخلاء، وتتناسى الأصدقاء، وتفر منهم كما يفر السليم من الداء؟

قال السيد توفيق:

- وأما الأخلاء والصحب والسجراء[1]، فحسبك من رجل عون في أمر لم ترده، ونصير في كل مطلب لم تقصده، فإن عرض لك بعض الحاج، فالعلوي يسترفد الحجاج ماء، يتلون بلون الإناء، ونيلوفر يدور مع الشمس في الصباح والمساء، إن جددت فإليك، وإن شقيت فعليك، مدح مع المادح، وقدح مع القادح، أجسام متدانية، وقلوب متنائية، وإن كان خبر سوء فحماد الرواية، مئذنة في ظاهر مستقيم، وباطن معوج سقيم!

- كذلك كان الناس، منذ خلق الله الأجناس، ورب شر لو لم يقع لما وقع الخير، وقد سارت سنة الحياة على أن يحمل الإنسان أخاه الإنسان، بما فيه من طماعية النفس وخسة الشيطان.

- دعني يا شيخ علي.. فلقد صدق أحمد بن الحسين حين قال:

ومـن عـرف الأيـام معرفتي بها وبالناس رؤى رمحه غير راحم

فليس بمرحوم إذا ظـفـروا به ولا بالردى الجاري عليهم بآثم

- أراك ضقت بالدنيا، وما عهدتك إلا سمحا صبورًا، فما بك في هذه الأيام؟.. لعلك أنهكت أعصابك، فأرح نفسك، فإنك على ما يبدو أحوج إلى الراحة، وأولى بالهدوء والاطمئنان.

(1) السجراء جمع سجير وهو الصديق.

- عندي قصيدة أنظمها، ومقالة أرسمها، وأحب أن أسمعك شيئًا..

- لا.. دعك من النثر والشعر، ومشاغل النفس والفكر.

***

ونهض الصديق الشيخ علي يوسف مودعًا بعد زيارته.. وكان الجفاء وقتئذ قد عاد بين الخديو عباس والسيد محمد توفيق البكري، فقد نقم الأمير عليه أمورًا دفعته إلى قطيعته، وأسلمته إلى نقمته، وكان قد كتب في جريدة «اللواء» مقالًا سنة 1908 لم يرتح لموضوعه الخديو، فغضب عليه. وزار «السيد» الآستانة، فأنعم عليه السلطان برتبة الوزارة العلمية، فكان العالم الوحيد الذي أنعم عليه في مصر بهذه الرتبة، فجاهر الخديو بأنه سيسعى لبعض أنصاره العلماء في الحصول عليها من السلطان، فقال السيد توفيق:

- أؤكد أن سمو الخديو لن يظفر بالإنعام بهذه الرتبة على مصري غيري، وكان يعني بذلك أنه آخر من أنعم عليهم بهذه الرتبة، ولما كان عدد المنعم عليهم محدودًا في الدولة، فليس الإنعام ممكنًا إلا إذا مات أحدهم.

وسمع السيد توفيق أن الخديو توعده، وانتقص قدره وسعى حساده لدى حاكم البلاد بالدس والوشاية، فازداد توتر العلاقات بينهما، وجاءت الحفلة السنوية للمولد النبوي الشريف، فحضرها السيد توفيق البكري وسائر مشايخ الطرق بمريديهم وأعلامهم ومواكبهم دون موكب السادة البكرية، فغضب الخديو وسأله: لماذا لم يحضر موكب البكري؟.. فأجاب السيد: إن هذه بدعة ليست من الدين، فانتهره الخديو أمام الحاضرين بكلمات رد عليه السيد بأشد منها، وترك الحفل دون أن يستأذن من الخديو، وذهب إلى بيته في حال نفسية شديدة أثرت في أعصابه، وأخذ الخوف يساوره ثم انقلب الخوف إلى خيال مملوء بالمردة والشياطين، وتمادى هذا الخيال، فتطور إلى مرض مقلق يتراءى فيه أعوان الخديو وقد أحاطوا به، وأقبلوا عليه يريدون به شرًا، فاعتزل الناس، وأوى في منزله إلى غرفة مقفلة الباب لا يسمح لأحد بدخولها إلا إذا هدأت أعصابه، وعاد إليه هدوءه، وزايلته أوهامه.

وكان الشيخ علي يوسف يزوره من حين إلى حين، ليخفف عن صديقه ما يعانيه من الوساوس النفسية، والاضطرابات العقلية.. فيصيب منه تارة يقظة ورشدًا، وتارة أخرى قلقًا وانسياقًا مع الأوهام والأحلام، فكان يرى من الأشباح في اليقظة ما يراه

الحالم في المنام، وقد وصف مرضه العقلي في ساعة من رشده في بيت لعله آخر ما نظمه من الشعر، قال:

«قد كنت أحلم قبل اليوم في سنة فصرت أحلم بعد اليوم يقظانا»

وقد اشتد عليه المرض، حتى لم يدع له وقتًا طويلًا من هناء النفس، ومتعة الفكر، والأنس إلى الصحب والأصدقاء.. وخالطه الخيال المشوش، واستولى عليه الوهم المخيف، فاعتقد أنه مضطهد من الخديو عباس الثاني، مطارد برجاله، وكان يصرخ في بعض الأحيان قائلًا:

- إليَّ أيها الناس.. يا بوليس.. يا نيابة.. يا حكومة.. يا رئيس النظار.. رجال الخديو يريدون قتلي!

واستمر يخلط في أقواله وأحاديثه.. ولازمه هذا الخوف، وتراءت له الأشباح في صباحه ومسائه، وقيامه ومنامه. وكان إذا اشتدت به الحال نهض ففتش تحت الأسرة والمقاعد، ووراء الأبواب والستائر، خشية أن يكون أحد رجال الخديو متربصًا له.

وأخذ يبعث بالرسائل إلى النائب العام ليحميه، وإلى محافظ العاصمة ليبعث إليه من رجال البوليس من ينقذه، ثم يكتب البرقية تلو البرقية إلى بطرس باشا غالي رئيس النظار وقتئذ يشكو له رجال الخديو، ويتهمهم بتآمرهم عليه، فيرد عليه رئيس النظار بأن الحكومة ستتخذ الإجراءات اللازمة لحمايته، ثم يأمر النائب العام أن يزوره في قصره ليطمئنه.

وطلب السيد توفيق صديقه الشيخ علي يوسف ذات يوم، ورغب إليه في الذهاب إلى الخديو ليرسل إليه رئيس ديوانه ليطمئنه، فأجاب الصديق رغبة صديقه، وقابل سموه، وشرح له حالته، فأشفق عليه.. وبعث أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوي ليؤكد له رضاه عنه، ويذهب عنه وساوسه، لكن الداء قد استفحل.. واستبد بنفسه فلم يفده توكيد ولا إقناع، ولم يغنه عطف ولا إشفاق.

وبقي الأديب الكبير في مصابه بنفسه يتألم، ويشعر بالاضطهاد من الخديو، ورجاله، ومن الحكومة، بل من أصدقائه وذويه وأهله، بل من العالم كله، وعاش في خيال مخيف تتراءى فيه أشباح القتلة والشياطين، بعد أن كان يطير بعقله الذكي، وقلبه الشاعري في أجواء سداها نور وجمال، ولحمتها أحلام وآمال، ونجيه فيه ضوء الهلال كما يقول:

«أيا ضوء الهلال لطفت جدًا كأنك في فم الدنيا ابتسام»

«يحبب لي سناك العشق حتى يصاحبني وأصحبه الغرام»

«بدا الهلال كأنه خنجر من ضياء، يشق الظلماء، أو قلادة، أو سوار غادة، أو سنان لواه الضراب، أو الليل فيل وهو ناب، أو عرجون قديم، أو نون من خط ابن العديم[1]، أو برثن ضيغم، أو مخلب قشعم».

ويقول على قبر عزيز: «أطلق الدمع وأطرق، فقد غربت الشمس في المشرق، فيا هزيمة العقل' وصولة الجهل، ويا وحشة الدور، وأنسة القبور، أقبر هذا أم جفن فيه سيف جراز، وترب فيه تبر وركاز[2]، وقليب هريق فيه ذنوب من كرم، وجفر[3]، تهدم فيه بنيان من همم.

«كم ذابت في ذاك الثرى خدود وجباه، وثغور وشفاه، وسلب من أنف شمم، وكم خربت فيه قصور، وهتكت ستور، وجمعت أضداد وفرقت أمهات وأولاد.

لم يكونوا إلا كركب تأنى برهة في مناخه ثم سارا

«سبحانك اللهم وسعدانك، من حبس، إلى رمس، ومن عبث، إلى جدث!!».

وسبحانك اللهم وسعدانك من صحة إلى مرض، ومن خيال رفيع الشأن، إلى أوهام طافت به وساوس الشيطان، فغاض هذا النبع، وجف هذا العين، وتشععت هذه القوة، وانطفأت تلك الجذوة، وسكت هذا الشادي البكري الألمعي، فما سمعت له اذن صوتًا بعد النكبة، ولا طربت بأدبه نفس بعد الكارثة، واعتزل الناس، أو هم اعتزلوه، ومات السيد البكري قبل أن يموت بثلاث وعشرين سنة.

❊❊❊

وكان السيد توفيق من أصدقاء الخديو عباس في مبدأ عهده، ثم دس له الخصوم عنده، فاخرجه من ساحته، وألجأه إلى الاستقالة من مشيخة الطرق الصوفية، ثم عاد فرضي عنه، وصفت له الأيام، وابتسم له الحظ، وعاد إلى مشيخته.

---

(1) ابن العديم من المشهورين في خط النسخ، ومن علماء القرن السادس الهجري، وهذه الفقرات من كتاب صهاريج اللؤلؤ للبكري.

(2) الركاز ما ركزه الله من المعادن.

(3) القليب البئر، والذنوب الدلو، والجفر البئر الواسعة

وفي ذلك الحين أقبل أحد أعياد الجلوس، فتألفت لجنة لعقد مباراة بين الشعراء لاختيار أحسن قصيدة تقال في مدح الأمير، ففاز السيد توفيق فيها بالميدالية الذهبية.

وأخلص للخديو أيما إخلاص، ووالاه ولاء ضحى فيه بصداقته للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وتقديره له واعترافه بفضله، وكان إصلاح الأزهر، فأراد الخديو أن يغير بعض أعضاء مجلس الإدارة بآخرين من الموالين له، فكان السيد توفيق البكري أول الساعين لخدمته، وقد بعث بخطاب وقتئذ إلى الخديو قال فيه:

«مولاي أدام الله ملكه..

«أخبرني محمد بيرم بك أمس بخبر، ولكنه يقبل قدم أفندينا بألا يسمعه أحد، فإنه إن سمع لغط، وذلك الخبر هو أن الشيخ محمد عبده توجه أول أمس إلى اللورد كرومر، وقال إن سمو مولانا الخديو يريد رفتي ورفت مجلس الإدارة جميعه، وطلب منه أن يتداخل في الأمر، فقال اللورد بأنه لا يمكنه التداخل، ولما يئس الشيخ محمد عبده منه، قال ائذن لي حينئذ أن أتوجه للإسكندرية، وأتكلم مع سمو الخديو.. فقال له اللورد: أنا لا أمنعك أن تتوجه، ولكن الأليق أن تنتظر سموه إلى أن يحضر فخرج الشيخ محمد عبده وقابل بطرس باشا غالي، فأشار عليه بالسفر إلى الإسكندرية، فقال الشيخ محمد عبده لكثير من أصحابه: «إني سأسافر هذا المساء إلى الإسكندرية، لمقابلة ولي النعم».. فأشيع الخبر في مصر بأنه سافر، حتى أنه كتب في بعض الجرائد، ولكني طلبت مقابلة الشيخ محمد عبده أمس فحضر عندي، فسألته عن المسألة بوجه الإجمال، لأعرف رأيه.. فوجدت أنه خضع، وغيَّر الموضوع حيث قال: «إنه لا يوجد أدنى توقف منا في تغيير مجلس إدارة الأزهر، ولكن لم نفهم قصد سمو أفندينا تمامًا، فنحن ننتظر مقابلته بالذات لنفهم الغرض فننفذه»، وكذلك شيخ الجامع قال لشفيق بك صباحًا بأن المشايخ مستعدون لتقديم الاستعفاء، ولكن لسمو أفندينا بالذات، وهذا كله غير ما كانوا يقولونه قبل مقابلة الشيخ محمد عبده لكرومر. ورأى عبدكم أن سموكم لا تظهرون لهم أدنى غضب، ولكن حيث إنهم لم يفهموا، ولم يثقوا بأن أكون أنا واسطة بين سموكم وبينهم، فسموكم تفهمونهم المسألة، وتأمرونهم بتنفيذها في الحال، وقبل صدور الأمر بالتنفيذ تتكلمون مع اللورد كرومر فيها من باب حسن المعاملة.

«هذا، وعندي أشياء كثيرة سأتشرف بعرضها عند تشريف الركاب العالي إلى هنا، أدام الله مولاي ولي النعم مؤيدًا بالعز والنصر دوام الدهر.

العبد الخاضع: **محمد توفيق البكري**

«حاشية- المبدأ الذي يتخذه مولاي في هذه المسألة هو هذا: إني أريد إصلاح الأزهر، لأني أعتقد أني بإصلاحه أصلح حالة الأمة الدينية والأدبية، ولكن لجنة الإدارة الحالية، لا يمكنها أن تنفذ الإصلاح لسبب هو أن أعضاءها قسمان: قسم ضعاف جدًا لا يصلحون للعمل، وقسم أذكياء، ولكن الثقة الدينية مفقودة منهم، فلجنة بهذه الصورة لا يمكن أن علماء الأزهر يقبلون لها أمرًا ولا نهيًا، وكل إصلاح منها يقابل بالرفض والهياج، فأحببت أن أبقى الأذكياء، وأبدل الضعفاء بآخرين حائزين للاقتدار والثقة، فيكون من مجموع الكل لجنة مقتدرة ذكية فيها ثقة يمكنها أن تقنع العلماء بقبول الإصلاح. «أما الأعضاء فعندنا أسماء كثيرة منها الشيخ النجاتي مفتي الأوقاف الذي شمله مولاي بعنايته أخيرًا».

واندفع السيد توفيق، في ضعف نفسي، إلى مناصرة الخديو عباس وتأييده، وخذلان خصومه، ثم دارت الدائرة عليه، فكان لذلك وقع شديد في نفسه، وكانت العزلة مبدأ داء عصبي شديد، ثم تفاقم الداء، ومكث ثلاث سنوات يعاني آلامه في مصر، ثم سافر إلى مستشفى العصفورية بلبنان سنة 1912 فبقي فيه إلى سنة 1928، وعاد إلى مصر، ضعيف البنية منهوك القوى، يخطو إلى القبر، ويستقبل الفناء.. وما زالت أوهامه ملازمة له، لكنها كانت تتخللها في بعض الأحيان فترات يثوب فيها إلى رشده، ويذكر سابق عهده، ويروي لمحدثيه جميل أيامه، وما سمح به الدهر من لحظات ابتسامه، ويستعيد الحوادث ويسوق الذكريات.. وكلما مرَّ على حادث ذكر رجاله بالخير، المحسن منهم والمسيء، حتى إذا أتى على حادث الأستاذ الشيخ محمد عبده استغفر لنفسه، وندم على ذنبه.

وقبل وفاته بأيام، كان إذا جاء ذكر الشيخ محمد عبده، وما وقع له معه قال لمن حوله: «أحب أن يذكر عني كل من يعرض للكتابة في هذه الحادثة أنني أخطأت وأنني آسف لهذا الخطأ».

وكان اعترافه بخطأه في حق الإمام آخر أحاديثه، فلم يسمع منه بعده حديث منطقي، حتى كان يوم السبت 13 أغسطس سنة 1932، فوافاه الأجل المحتوم بعد ما ذاق من دنياه أشق ما يذوقه الصحيح والسقيم.